محاضرة رقم2 في الفلسفة الغربية الحديثة

المستوى: السنة الثالثة ليسانس السداسي الخامس.

إشراف الدكتور: بن دوخة هشام.

المدرسة العقلانية: رونيه ديكارت (René Descartes) (1596-1650م).

ثلاثة محاضرات حول فلسفة "ديكارت": إثبات الكوجيطو، إثبات وجود الله، حقيقة العالم الخارجي.

1. نبذة عن حياته:

فيلسوف فرنسي ولد سنة 1596م، في "لاهيه" بمقاطعة "تورين" بفرنسا، كان والده من أصل النبلاء،مما يعني أنه لم يتعب في كسب الرزق، درس على يد اليسوعيين في منطقة "لافلاش" la flèche، حيث تعلم في هذه المدرسة على يد اليسوعيين الكاثوليك اللغة الإغريقية والرياضيات والفلسفة المدرسية (السكولائية).

1. أهم مؤلفاته:

مقالة في المنهج (1637)

التأملات (1641) تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى.

مبادئ الفلسفة (1644).

1. كيف ظهرت فلسفة ديكارت؟

ظهر "ديكارت" في حقبة إلتبست فيها مجالات العلم ببقايا الأهوت حاضرا في صميم فلسفة "ديكارت" الذي كثيرا ما يعتبر مرحلة قطع مع الفلسفة القديمة، معناه أنه لاغرابة أن يكون الأهوت حاضرا في صميم فلسفة "ديكارت"، وعلة ذلك أن فلسفة"ديكارت" لاتزال بعد متصلة بميتافيزيقا الأهوت وفي مقدمتها: الحجج والبراهين التي وظفها لإثبات وجود الله.

يعد الجانب الديني من أقوى المؤثرات في فلسفة "ديكارت" إن لم نقل أن مضمونها خاضع لمرجعية دينية لاهوتية، حتى انه يمكننا القول أن فلسفته هي نفسها ذلك الحلم الديني الذي كان يراوده.

ما المقصود بالحلم الديني عند "ديكارت" وما حقيقته؟

يؤكد "ديكارت" أنه اكتشف فلسفته إثر حلم يبشره بذلك في الليلة التي كان ذاهبا فيها إلى ألمانيا، ثم فكر في البقاء ليلقى عليه نور سماوي بأن يغير ويكتشف فلسفته، كان ذلك عام 1619، واعتبر الحلم حلما إلهيا وأنه رسالة من روح الحقيقة.

هل يمكن القول أن "ديكارت" يطابق الاهوتيين في فهمهم للدين تمام المطابقة؟

لا، لماذا؟، كان "ديكارت" أكثر عمقا من الاهوتيين في فهمهم للدين بالمعنى الفلسفي، لأن الاهوتيين انشغلوا بنوع من الفكر الذي يضع الإنسان في دائرة متشددة بقوة الإيمان وشروطه ( الغلو في الدين)، على عكس "ديكارت" الذي يضع الإنسان أمام عالم يحكمه العقل وقوانينه.

للتوضيح أكثر:

الاهوتيين: الإيمان الديني- الجانب الروحي- الدين فقط.

ديكارت: العقل وقوانينه- الجانب الروحي- لذلك قيل أن فلسفة "ديكارت" فلسفة عقلانية روحية.

* تقوم فرضيات "ديكارت" أو منطلقاته الفلسفية على أسس وهي: أولا- إثبات الأنا المفكرة. ثانيا: إثبات وجود الله خالق هذه الذات. ثالثا: إثبات العالم.
* "أنا أفكر إذن أنا موجود"
* الشك والكوجيتو أو إثبات الذات المفكرة.

2- "أنا أفكر إذن أنا موجود"، الشك والكوجيتو أو إثبات الذات المفكرة"،

يلعب الإلحاح في طلب اليقين الذي لايرضى الفكر بدونه في ميادين المعرفة كلها دورا هاما في حياة "ديكارت" الفلسفية. لقد حمله الشغف على التنكر للمعارف التي تلقاها عن أساتذته وغيرهم في أيام الدراسة لأنها متضاربة لايقوم عليها دليل، ولم تقتنع بها نفسه.

ولقد نجح في الطريق الذي سار عليه، وتوصل بالفعل إلى أن يقيم فلسفة رفيعة العماد، كانت بداية لما اتى بعدها من الفلسفات على إثر مغامرة عقلية ممتازة، كان فيها طريق الشك هاديا إلى نور اليقين.

* إن الشك هو المرحلة الأولى في فلسفة "ديكارت"، ولقد لجأ إليه لا ليزعزع الحقيقة بل ليختبرها حتى إذا ما صمدت لهجماته، اطمئن إليها وتعلق بها، فشكه بعيد عن شك "الريبيين" أو "الشكاك". ولايفوته أن يشرح لنا وهو يسلك طريقه ما يفرق بينه وبينهم، فيقول: " وماكنت في ذلك مقلدا الريبيين الذي لايشكون إلا للشك، ويتظاهرون دائما بالتردد لأن غرضي كله، كان عكس ذلك، لايرمي إلا للظفر باليقين، وإلى الإعراض عن الأرض المتحركة والرمل في سبيل العثور على الصخر والصلصال" مقالة في الطريقة، الترجمة العربية لجميل صليبا، ص126.
* فهذا القول يبين لنا ان قصد "ديكارت" لم يكن شيئا لآخر غير الوصول إلى اليقين، ولهذا يوصف بكونه شكا منهجيا.

وهو شك يمتاز بكونه يرفض كل مالايثبت بصفة يقينية، ولايمتاز بكونه تعليقا للحكم كما هو الشأن عند "الاأدريين"، لأن الرغبة في الوصول إلى الحقيقة هي التي حملت الفيلسوف إليه، فالشك الديكارتي شك مبالغ فيه، إذ أنه يحكم على ماهو مشكوك فيه كما لو كان باطلا، ومن المعلوم أن المشكوك فيه يمكن أن يكون باطلا كما يمكن أن يكون صحيحا.

ويمتاز هذا الشك أيضا بأنه مؤقت لانهائي، لأن وظيفته هي إخلاء المكان لليقيني حقا، كما يمتاز بأنه إرادي، لن الإرادة هي التي حملت صاحبه إليه، ولذا فهو شك خاص، يلجأ إليه صاحبه حتى يجد الوضوح والتميز.

* إن "ديكارت" يشك في المعارف التي تلقاها عن أستاذته لأنها متضاربةن ولاتقوم على أساس صحيح.
* ويشك في ما تقدمه لنا الحواس لأنه جربها فوجدها خداعة، "ومن الحكمة أن لانطمئن إلى من خدعونا ولو مرة واحدة" (ديكارت، تأملات في الفلسفة الولى، ترجمة عثمان أمين، مكتبة الأنجلو مصرية، ص73).
* ويشك في جميع الأفكار التي تعرض لنا في اليقظة، لأنه إنسان من عادته ان ينام، وان يرى في أحلامه أشياء لاحقيقة لها خارج فكره، فمن يدري؟، لعل حالة اليقظة ليست إلا نوما، يقول "ديكارت": " وعندما أقف عند هذا الخاطر، أرى بغاية الجلاء أنه ليس هناك إمارات يقينية نستطيع بها أن نميز بين اليقظة والنوم تمييزا دقيقا، فيساورني الذهول، وإن ذهولي لعظيم حتى أنه يكاد يصل إلى إقناعي بأني نائم ". المرجع السابق، ص74.
* ويشك في الأدلة الرياضية التي كان يحسبها براهين صادقة، إذ يقول:" هناك رجال يخطؤون حتى في أبسط مسائل الهندسة، ويأتون فيها بالأغلاط" ديكارت، مقالة في الطريقة، مرجع سابق، 132.
* ويشك أخيرا لأنه يفرض وجود شيطان ماكر أو إله ماكر او إله مضل يستعمل دائما ما له من مهارة في إضلاله، بحيث لايعدو أن يكون كل ماهو موضوع لمعرفته مجرد وهم وخيال. وبفكرة الشيطان الماكر يكون "ديكارت" قد استنفذ دواعي الشك كلها، حتى يرى بعد من بعد ذلك ماذا سيكون ؟.
* أنا أفكر إذن أنا موجود، هذه هي الحقيقة الثابتة الراسخة التي ظهرت "لديكارت" كالشمس، والتي لايستطيع شك أو شيطان مضل أن يزعزها مهما فعل، وإذا عزم على ذلك فلن يقوم إلا بإثباتها، يقول "ديكارت" :" فليضللني ماشاء، فماهو بمستطيع أبدا أن يجعلني لاشيء مادام يقع في حسباني أنني شيء"، ديكارت، التأملات، مرجع سابق،ص134.
* إن هذه الحقيقة لم يصل إليها "ديكارت" بالإستدلال وإنما برقت له بقوتها، فرآها رؤية مباشرة فرضت عليه أن يؤمن بها، وأن يتمسك بها على أنها الحقيقة الأولى التي وجدها والتي يمكن أن يطمئن إليها من غير خوف كلما جرت على لسانه وتصورها في ذهنه .

وبهذا توقف الشك وهو يبلغ أقصى حدوده، أنه ثابت كفكر وأنه لايمكن ان ينكر نفسه كفكر مهما كانت محاولاته، فالفكر في الكوجيتو يتجلى حاسما للشك من جهة ومرتبطا ارتباطا ضروريا بالوجود من جهة أخرى ، بحيث يمكننا القول أنه لافكر دون وجود، لاسيما وأن "ديكارت" حينما يقبض عليه، لايقبض في الحقيقة إلا وجوده ككائن مفكر.

فالكوجيتو كما نرى أخرج" ديكارت" من مرحلة الشك ومنحه أول حقيقة يمكنه أن يبني اعتمادا عليها.

-" أنا أفكر إذن أنا موجود" تضمن له أنه يقول الحقيقة، كونه يرى بكثير من الوضوح ان التفكير واجب الوجود.

2- وجود الله:

يطلع الكوجيتو "ديكارت" على شيئين اثنين: إنه يطلعه أولا على ماهية نفسه، كجوهر مفكر، ويطلعه ثانيا، على مثال للحقيقة اليقينية، ولكنه يقف به عند هذا الحد إذ يفصله عن كل ماسواه.

* إن وجوده كجوهر مفكر لايمكن أن يكون محلا للشك في الوقت الذي يفكر فيه، لكن وجود غيره لايدل عليه شيء في هذه المرحلة من مسيرته الفلسفية، فكيف يستطيع الوصول إليه والتحقق منه؟

ليس له إلا أن يرجع إلى نفسه كجوهر مفكر وان يبحث في نطاق حدودها ليعثر على ما يمكنه أن يتقدم بواسطته، ويرجع "ديكارت" إلى نفسه ويطلب منها طريقا إلى غيره، فلا يجد لديها سوى أفكاره، ومع ذلك فإنه لم يستهن بهذه الأفكار فقام يستعرضها ليتبين أنواعها.

إن الأفكار الذي يجدها "ديكارت" لديه مختلفة، فمنها أفكار يظهر أنها تطرأ على فكره من الخارج عن طريق الحواس وهي الأفكار العارضة (Idées adventices)، ومنها أفكار يبدو أن مخيلته هي التي تركبها بواسطة الأولى وهي الأفكار المصطنعة (Idées Factrices) ،ومنها أخيرا أفكار يبدو أنها ولدت معه وهي الأفكار الفطرية (Idées Innées).

إن فكرته كإنسان يحيله الإحساس إليها، وفكرته عن حصان ذو اجنحة مثلا تساهم المخيلة زائد الحواس في تبادرها إلى الذهن يمكن أن تكون صادرة عنه أو عن حواسه، أو حتى عن مخيلته، لكن ثمة فكرة واحدة لا يمكن ان تكون صادرة عنه بحال، إنها فكرة تتجاوزه بإستمرار، ولايمكنه أن يعتبرها من ابتكارات نفسه، لأنها وضعت فيه كي تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته، تلك الفكرة هي فكرة " وجود الله" بإمتياز.

إنها الفكرة التي تحيل بالضرورة إلى مدلولها، لذلك يقف "ديكارت" عندها ويستخرج منها بالتأمل فيها ثلاثة أدلة على وجود الله:

إن الله موجود أولا: لأن فكرة الكمال التي توجد من بين أفكاري لها علة، وهذه العلة لايمكن ان تكون نفسي الناقصة لأنها لا تستطيع بسبب نقصها أن توجد ما هو أكمل منها.

ولا يمكن أن تكون الحواس هي التي منحتني إياها، لأنها لاتمنحني سوى تصورات غامضة، ولا المخيلة لأنها لا تستطيع أن تفسر وجود فكرة بسيطة.

وعليه فأنا أحمل هذه الفكرة من غير أن يكون لي دخل فيها، فهي فكرة خاصة، وإذا كنت أحملها فغيري هو الذي وضعها في نفسي، وهذا الغير لابد أن يكون موجودا قادرا على خلقها، ولابد أن يكون موجودا كاملا، لأنه إذا لم يكن كذلك لن يقدر على خلقها، ولقد وضعها في نفسي لتكون بها كالعلامة الدالة عليه.

والله موجود ثانيا: لأنني موجود، ولأن لي فكرة الكمال، ولأنني ناقص، فلو كنت قد خلقت نفسي لخلقتها كاملة، والكمال شيء تحقيق أسهل من الخلق من عدم. ولكن بما أنني ناقص فنقصاني دليل قاطع على كوني لم أخلق نفسي.

والله موجود ثالثا: لأنه يكفيني أن أفكر فيه لأعرف أنه موجود، ففكرته تتضمن وجوده بالضرورة.

ولهذا فنحن لانستطيع أن ننكر وجود اله إلا إذا تناقضنا. إن فكرة الله صادرة عنه، وهو الذي يوجهنا إليها، لتدنا هي عليه، وبعدها يمكننا أن ننتقل بلا تأخر من مسألة وجود الله غلى ما يترتب عنها من نتائج.

1. وجود العالم الخارجي:

الأن وقد وجد "ديكارت" الله فإنه يستطيع أن يراهن دون تردد على ان العالم الخارجي موجود وحقيقة ثم غن فكرة الحواس التي نفاها في الطور الأول من مرحلة شكه كما رأينا ذلك، فإنه الآن لايستهين بدورها، سيما وقد أثبت أن الله موجود حقيقة، ومن ثمة سيصبح الله هو ضامن صدق دور الحواس التي تحيلنا إلى استشعار العالم الخارجي الذي هو من حولي. بيد ان حقيقة العالم الخارجي فيما يرى "ديكارت" ليست في صورته التي يتبدى لنا عليها.

إن حقيقة العالم الخارجي هي الإمتداد طولا وعرضا وعمقا، يضرب لنا "ديكارت" في هذا السياق مثال شمعة العسل، ففرضا أننا أخذنا قطعة من شمع العسل ( خلية)، وشاهدنا للوهلة الأولى، ماذا سنرى؟، لن نشاهد إلا قطعة، لها شكل ولون وتنبعث منها رائحة زكية، لكن فرضا اننا عرضنا تلك الخلية على النار، ما ذا سيحدث؟، سيذهب كل مارأيناه في الوهلة الأولى، لونها وشكلها وحتى رائحتها، وسيبقى فقط سائل.

لذلك فإن حقيقة العالم الخراجي هي الإمتداد.